مجلة المجمع العلمي

ملامح الفكر التاملي في العراق القديم

الدكتور جواد مطر الموسوي
رئيس جامعة واسط

الدكتور خليل سعيد
كلية المامون

الملخص :

هذا البحث محاولة في تجذير التاريخ وبالذات تاريخ الفلسفة العراقية القديمة ، للبحث عن اسس الفكر العراقي الذي اوجد اكبر واعرق الحضارات العالمية ، مستشفين ذلك من بين الاساطير الدينية والادبية . والفلسفة ليست مجرد نظرة فردية خالصة بل هي خلاصة للخبرة تلانسانية في كل مراحل التاريخ الانساني ، لذلك نجد لكل مرحلة تاريخية ولكل مجتمع من المجتمعات فلسفته الخاصة التي تلخص معارفه العالمية وتبلور قيمه الاجتماعية العامة ، وقد جسد الفكر الديني الرافديني ميول الانسان الواقعية ومفاهيمه التجريبية وقيمه السلوكية لذلك فان دراسة الميثولوجيا تقربنا من تفكير الانسان العراقي بصورة اعمق ومعرفة توجهاته الفلسفية . وقد عالج الفيلسوف العراقي القديم جملة مواضيع دار حولها هذا البحث منها :

_ ان الالهة هي الموجه الاول لسلوكية الفرد وانها عارفة بكل شيء يخفيه البشر عليها .

_ عندما تدير الالهة وجهها عن المتعبد يصيبه الارهاق والعذاب في الحياة الدنيا والاخرة .

_ ان الشجرة وابليس والمراة والحية وادم ، رموز تدل على النماء والخصب والغدر والشر والخير والجنس والفتنة والفساد .

_ ان طاعة الالهة وطلب الحمماية منها كان منطلقا من مبدا ان الالهة ماخلقت الانسان الا ليكون في خدمتها ، وهذا يدل على قوة الارادة الالهة ومدى ضعف الانسان امامها ، بالمقابل على الانسان ان لا يتخطى دوائر السلطة البشرية من العائلة او المجتمع ، ومن هذا جاءت الحكمة العراقية (اجعل كلام الوالدين بمثابة امر الهي) .

_ عالج الفيلسوف العراقي القديم اختلاف الشرائح الاجتماعية ، وعدّ الارادة الالهية العقل والواقع ، لانها هي التي خلقت في الانسان الصدق والاحسان والعدل فحاكم لكش (اورنميكينا) يفتخر باصلاحاته وتشريعاته بحكم كونها مستوحاة من احكام العدل الالهي ، لكن جهود (اورنميكينا) في الحرية الديمقراطية انتهت بظهور حاكم مركزي توسعي له طموحات شخصية هو (لوكال زاكيزي) الذي قضى على منابع الفكر الحر في لكش بعد عام (2400 ق . م) .

المقدمـــة :

انطلاقا من قول ارسطو (384-322ق . م) (علينا تتبع الحوادث من اصولها للالمام بها كما كانت اصلا) ارتأينا تجذير تاريخ الفلسفة العراقية القديمة مستشفين ملامحها من بين الاساطير الدينية والأدب العراقي القديم ، في محاولة للكشف عن ثوابت الفكر العراقي واسسه المثبتة التي اوجدت اكبر حضارة في العالم ، بقيت آثارها تحت الأرض تبحث عن معول لآثاري خبير يستظهرها ويدرسها ، ويوصل نتائجها الى العلوم الاخرى لكي تفككها وتعيد بناءها لاستكشاف مقدرة هذا الفكر العملاق الذي استطاع ان يبني هذه الحضارة العريقة الكبيرة الرائعة . وتشكل الفلسفة الركيزة الرئيسة في هذا الفكر .

ولا تكاد الفلسفة تستقر على معنى واحد حتى في العصر الواحد ، بل اوشكت ان تبلغ حدا يستحيل معه الاجماع على رأي واحد . فما عسى ان يكون مجال البحث عندما يسمى هذا البحث (فلسفة) والباحث (فيلسوفا) ؟ وعلى الرغم من ذلك ، فالفلسفة تعني بالمعنى الخاص (محبة الحكمة) وبالمعنى العام : النظرة الشاملة الى المجتمع والوجود . وبهذا المعنى يمكن القول : إن لكل انسان فلسفة خاصة به . وقد اتفق الفلاسفة قبل سقراط (470-399ق.م) على مسألة واحدة هي جوهر الوجود الذي يكمن وراء المتغيرات ، وما الجوهر الثابت ؟ ولكن الفلسفة ليست نظرة مجرَّدة فردية خالصة بل هي خلاصة للخبرة الانسانية في كل مرحلة من مراحل التاريخ الانساني . ولهذا نجد لكل مرحلة تاريخية ولكل مجتمع من المجتمعات فلسفته الخاصة التي تلخص معارفه العلمية وتبلور قيمه الاجتماعية العامة . لذا فان تاريخ الفلسفة هو التعبير الفكري عن التاريخ البشري نفسه بكل ما يمتلئ به هذا الصراع من تناقضات . وينقسم تاريخ الفلسفة ، بوصفه علم التاريخ البشري ، إلى اتجاهين : الاتجاه المثالي (الميتافيزيقي) والاتجاه العلمي[1].

البحـــث :

قد توجد مجتمعات بشرية بلا علوم وفنون ، ولكن لا توجد جماعة بلا دين ؛ لان الدين يمثل المعرفة الإنسانية بمختلف مجالاتها ولاسيما الفكر وتطوراته . وقد جسد الفكر الديني في بلاد الرافدين النظرة السائدة في

---

[1] الجاسور ، ناظم عبد الواحد ، موسوعة المصطلحات (بيروت : دار النهضة ، 2008م) ص454 .

مجتمعه الخاصة بميول الإنسان الواقعية ومفاهيمه التجريبية وقيمه السلوكية ، لذلك فإن دراسة الدين تقربنا من تفكير العراقي بصورة أعمق ومن معرفة توجهاته الفلسفية . واذا تفحصنا المجتمع نجده قد أعطى للفكر الديني المقام الأول في الحياة ، لانه هو الذي يعمل على صياغتها ، انطلاقا من المبدأ المتمثل في ان الآلهة صاحبة كل شيء في الحياة ، وانه ما من عمل يقوم به الإنسان إلا والفعل الإلهي قد دخل فيه حسب تصورهم ، وكان ذلك منذ ان خلقته وقدرت عمره[2].

لذلك وجب عليه ان يتصرف وفق ما يرضي الآلهة ، لعلها تبعد عنه الشرور والنكبات وتطيل عمره وتحفظ اولاده ، ومن ثم كان عليه الا يتحدى الإرادة الإلهية ، او يخوض صراعا معها ، وان يظل عبدا مطيعا لها . واذا لم يفعل ذلك ، حسب تصورهم ، فسوف تغلق الابواب بوجهه ، وتسدل ستائرها ، فتحجب عنه نور السعادة ويبتلى كما ابتلي أيوب السومري الذي ورد ذكره في الاسطورة او القصة المسماة (الصالح المتألم)[3].

---

(2) Jean, Charles, Les sumerlenne Religien Text (1924). P .141 .
heidel . A; the Babylonian Genesis. (Chicago : 1967) P.68-69 .
Boittero , J; Dans . (L) Anneuair de L E cole des hauts etudes (1965 – 1966) p. 105-111 .

(3) Rene labat. Les Religion du Proches (orient asiatiqu : 1970) p . 328-342 ؛ سهيل قاشا ، تاريخ الفكر في العراق القديم (بيروت : مكتبة السائح ، 2010م) ص131 .

اذا وجب عليه ان يتعبد في حضرتها وألا يبارحها ، ويقدم لها القرابين (الخبز والاضحية والصلاة) [4] ليستظل بظلها ولتغادر غضبها ويُشرق نورها عليه ، وبذلك تسقط في حسابها الاقدار والشرور والنكبات ، فتمنحه العمر الطويل . وهذا نلمسه من النص الاتي : (ان الخوف من الاله مدعاة للعطف ، والقرابين تطيل العمر. ان من يخاف من الهته تطيل الآلهة (الانوناكي) عمره[5] .

أيا...سيدي

لاتكسر بخاطر عبدك

انه منغمر..

في مياه مستنقع

خذ بيده ...[6].

وفي نص ثان جاء الاتي :

لينطق الانسان

بتمجيد ربه

وببراءة

---

(4) Rosengarten. Yvonne, Les Regime des offrandes dana La societe sumerienne (paris . 1960) p. 13-23.

(5) الانوناكي : صنف من الآلهة ورد ذكرهم بسمات مختلفة ، اذ جاء ذكرهم في اسطورة (الى العالم الاسفل) : فهم القضاة السبعة الذين وجهتهم ملكة العالم الاسفل (ارشكيكال) الى (اننا) ليسلطوا عليها نظرات الموت. كما ورد ذكرهم في اسطورة (الخليقة البابلية) وكانت كل مجموعة قوامها ثلثمائة اله ، وجعل احدى المجموعتين في السماء وهي (اكيكي) والاخرى في الارض (انوناكي) .

(6) سهيل قاشا ، تاريخ الفكر ، ص130.

ليسبح الشباب
بكلمات ربه[7].

وبهذا المعنى وصفت الإلهة (جولا) ، الهة الطب والشفاء ، بأنها حافظة حياة من يخافها [8]. وان عدم اقامة الصلوات ورفع التراتيل والأدعية وتقديم القرابين ، يعني تخلي الالهه عن الفرد، ويترتب على ذلك نزول لعنات الآلهة ونكباتها عليه. وبهذا المخيل (المحسوب) يثبتون إدراكهم ما هو مقدس . وهذا اتاح لهم ان يجيبوا عن الالغاز الكبيرة التي كان المحيط يطرحها عليهم ، ويـــدهشهم من دون ان يضجرهم ، فقد فكروا فيها كثيرا وجمعوا تأملاتهم جيلا بعد جيل لكي يفلسفوها من خلال تركيب الصور والظرف والحدث .

وهذا ما جاء في نص أدبي بليغ وصريح هو :

ترهقني حاجتي
تعذبني مذلتي
الى بيتي ، وبوابتي ، وحقولي
الالم يتدفق
والحزن يلفني
طالما ادار وجهه عني
إلهي
قواي تلاشت

---

(7) Jean , opicit . p . 226.

(8) Heidel , A , The Gilgamesh Epic and testament parra like (Chicago : 1969) . p . 14

همتي راحت
نسيتُ عنواني[9].

ويعكس هذا النص ما حل بالشخص الذي تدير الآلهة وجهها عنه ، فقد اصابه الارهاق والعذاب في الحياة الآخرة ، في بيته وحقله فتلاشت قواه.

وفي ترتيلة ثانية تروي لنا كيف ان الآلهة (كوتمدوُك) كانت الموجه الاول لسلوكية الفرد وانها عالمة (عارفة) بكل شيء يخفيه البشر عنها، وهي داعية البشر كما في النص الاتي :

مليكتي ...
نبهي السماء الطاهرة
لترشدني الى الصواب
انتِ في المرتبة الاولى عندها
انتِ التي تعطينا الحياة
انتِ الملكة الام
التي أَنشأت الجيش
انت تنظرين الى الشعب
التي اصبحت حياته اطول
ليس لديَّ سواك أمًّا
ليس لديَّ سواك ابا
انت أميَّ .. انتِ أبي
انتِ التي ولدتني في المعبد

---

(9) Kig . L.W ; The saven tablets crasaton . volid , 1902 . pp 68-69

انتِ تعلمين كل شيء ..
انت تخلقين مني نفحة الحياة
بحمايتك .. يا أمي
وفي ضلالك .. دائما
أكون مسرورا[10].

يعكس لنا الفيلسوف العراقي القديم في هذا النص عظمة (كوتمدوُك) وقوتها وعظمتها لدى الإنسان ومن خلال امكاناتها لتحديد مسار الخيارات الخلقية للإنسان ، فهي الملكة الام التي أسست الجيش ، كما ينقلها النص بعد ذلك الى نقطة ذات اهمية خاصة عندما يذكر ان الفرد في ظلها يحظى بالسعادة والهناء ، فدين العراقي القديم لم يكن امرا فائضا ، وانما كان سمة للوجود تشكل اساس الحياة كلها ، وفي نص ثانٍ يخاطب اله الشمس (اوتو) ، جاء فيه :

انتِ تؤمنين السلامة
للمسافر في طريقه الى السماء
انتِ ملاذ الفارين والهاربين
وترشدين الأسير إلى طريقه
انت الحنون تسهرين على المريض
وتجلسين بقربه وتشخصين مرضه
تنقذين الغرقى من بين الامواج ...
وتعاقبين الاشرار والقضاة المرتشين بالهدايا
انت المنيرة على وجه الارض

---

(10) Schokel , H: Sumer et civilization sumerienne (paris:1068) p.62

يا إلهتي الشمس
الهة الرحمة...
يا رمز العالم المتسارع [11].

من هذا النص تتجلى اهمية (اله الشمس) في حياة المجتمع العراقي القديم.

والجدير بالذكر ان اله الشمس اوتو (utw) قد جسده السومريون بالشمس وسماه الساميون (شمش Shamash)[12] ، وجاء ذكره في النقوش الصفوية والارامية[13] وعند التدمريين والانباط [14]. وسماه (الحضريون) (كبير الشمس)[15]، والحضر تسمى مملكة الشمس (مدينة الشمس) .

وقد عبدت الشمس في حمص في عهد السلالة الحمصية [16]. ومن المؤكد ان الميسانيين عبدوا الشمس . والشمس تصورها الاساطير العربية كالملك وسائر الكواكب كالاعوان والجنود [17]. وقد عدُّ اله الشمس ، حسب

---

(11) Lambert , W.G; Babylon Wisdom (Literature : oxford , 1940) p.129-131.

(12) جان بوتيرو ، الديانة عند البابليين ، ترجمة : وليد الجادر (بغداد : 1970م) ص72.

(13) اسرائيل ولفنستون ، تاريخ اللغات (بيروت : دار القلم ، 1980م) ص123.

(14) احسان عباس ، تاريخ دولة الانباط (عمان : دار الشروق ، 1987م) ص128.

(15) الموسوي ، جواد مطر ، الشمس في الاساطير القديمة ، مجلة (الحكمة) العدد 22 (بغداد : بيت الحكمة ، 2002م) ص127-133.

(16) الموسوي ، جواد مطر ، الميثولوجيا والمعتقدات الدينية(دمشق : رند للطباعة ، 2010م) ص116.

(17) المصدر نفسه ، ص114.

تصورهم ، اله الحق والعدل الذي برعايته وحمايته استطاع الملوك والحكام الذين سبقوا (حمورابي) (1792 – 1750 ق.م) ان يصنعوا قوانينهم .

لهذا عدُّوا (الشمس) القاضي الاعظم ومصدر الشرائع والعدل والمنتقم من الظالم . ولعل سبب ذلك عَدُّهم الشمس مصدر المعرفة الحقيقية للإنسان تكشف له بنورها المتميز كل الغموض وتزيل الظلام ، لذلك سجد (كلكامش) لها داعيا :

إني ذاهب .. يا شمس
واليك ارفع يدي بالدعاء
أَرجعيني سالما
إلى ميناء (اوروك)
عسى ان تنال روحي
الخير والبركة
وانثري عليَّ ظلك
واشمليني بحمايتك[18]

ويتضح ذلك من نص موجه من احد الموظفين الى (جوديا) او(كوديا) حاكم لكش (2144-2124 ق. م) إذ جاء فيه :

عسى (شمس) القاضي الجبار للسماء والارض
يا إلهي .. الشمس
القاضي الجبار ..
للسماء والأرض

---

[18] ينظر للتفصيل : عبد الحق فاضل ، هو الذي رأى (بغداد : دار الرشيد ، 1981م).

الذي يهدي الكائنات
الى الطريق الحق .. الطريق المستقيم
عساه .. وادعوه
ان يقوض مملكته ...[19]

ومن النصوص الأخرى التي تشير الى ان الآلهة قد أثرت كثيرا في حياة الإنسان نص يذكر ان الإلهة (نانشة Nanshe) اثرت في حياة الفرد لأنها ترمز إلى الحكمة والمعرفة والعدل ، ولها القدرة على التنبؤ وكشف الغيب واستطلاع المخبوء وكشف الاحلام ، وهو :

تعرف اليتيم وتعرف الارملة
وتعرف ظلم الانسان للإنسان
انها ام اليتيم
انها الملكة التي تأخذ اللاجيء الى حجرها
وتوجد ملجا للضعيف عندها[20].

ومن الواضح ان مثل هذه النصوص التي ذكرناها حاول الفيلسوف العراقي القديم ان يعكس من خلالها القيمة الفعلية للآلهة ، ويوضح العلاقة بين الفرد وآلهته ، الى جانب قيمتها الرمزية .

والرمز (symbol) بدأ مع بداية الإنسان في الحياة ، فهو تجسيد لشيء يشابهه واختصار للتعبير عن اشياء روحية او مادية . ووضوح تعبير الرمز يأتي من مستوى التصاق الأشياء الروحية به ، ومستوى فهم الإنسان وتطور عقله ؛ لان الرمز اختصار لأشياء كثيرة قصدنا اخفاءها ، لم

---

(19) Labat , op.cit. p .236.

(20) Lambert , op. cit . p.127-137.

نستطع التعبير عنها لان لغة الشفاه تقف عاجزة عن فهم بعض القضايا غير المدركة في الطبيعة . والرمز انعكاس لحركة الواقع والأشياء ، لذلك من الممكن الالتفاف حول الأشياء لتشكيل الرمز . ويبقى تصور الإنسان للأشياء ورمزيتها من خلال خلفيته المعرفية وحواسه الشخصية؛ فصوت المرأة للرجل المكفوف له رمزية غير رمزية صـــوت الرجل .

والرمزية تحدد وفقا لفكرة المعرفة بشيء ما . ولم تنفك الرمزية عن الإنسان لحظة واحدة ، لأنها جزء من تكامله وشخصيته . وان لغة التفاهم الأولى كانت سهلة ــ يسيرة ثم تعقدت نتيجة تراكم الخبرات. والحركة كانت البداية الأولى ، فكل حركة للإنسان هي رمز للتفاهم ، لذلك يعد الرقص حركة رمزية تفاهمية سواء كان الرقص تعبيرا عن ممارسة طقوس وعادات اعتقادية او تعبيرا عن الأفراح والأتراح ، فبعد ان كانت الحركة الرمزية غير موثقة ، تطورت الى التوثيق او الترميز ، فأخذت تظهر على جدران الكهوف على شكل رموز ومخربشات اعتقادية او اجتماعية معبرة عن وضعية الإنسان البدائي . وربما كان الغرض منها التوثيق وهو بداية الحس التاريخي ، والحضارة العراقية مليئة بهذه المخربشات . كما ان الرمزية الوسيلة التعبيرية الأولى عند الإنسان ، وهي مرتبطة بالطبيعة ومجسدة لها ؛ فالاله (سين) يتجسد بالقمر والإلهة (فينوس) تتجسد بـــ (كوكب الزهرة) والاله (شمش) يتجسد بـــ (الشمس) . وهذا يعني ان الرمز اختصار للطبيعة ، فلكل شيء رمز ولكل رمز شكل ، وكل شيء مرتبط بشيء مادي او غير مادي[21].

---

[21] الموسوي ، جواد مطر ، الرمز والانسان ، مجلة (مرافئ ثقافية) العدد 3 (واسط : جامعة واسط ، 2011م) .

وفي الوقت الذي كان الرمز اختصارا وتعبيرا معنويا عن الطبيعة ، نجد الطبيعة تعبيرا ماديا عن الرمز . من هنا كانت الرمزية تعبيرا عن حاجات الانسان ومعرفته وتراكم خبراته ، فكانت الرمزية الاولى تدور حول الخلق الاول للكون كما في (الانيوما ايليش) (Enuma- elish) (انشودة الخليقة البابلية) . ويُجسّد أحد الرسوم السومرية الانسان وهو في الجنة قبل نزوله الى الارض بصورة رجل جالس ، على رأسه قلنسوة تقابله امرأة حاسرة الرأس ، وهما جالسان وبينهما نخلة يتدلى منها عذقان من التمر ، ويمد الرجل والمرأة يديهما ليتناول كل منهما العذق الذي امامه[22].

وتقف الحية منتصبة على ذيلها، ويظهر انها تغري المرأة بالأكل، وهي تشبه قصة آدم وحواء كما في (التوراة)؛ فالشجرة وأبليس والمرأة والحية وآدم ، رموز تدل على النماء والخصب والغدر والشر والخير والجنس والفتنة والفساد .

وقد نَشأَ الرمز مع الانسان ، فكان ابن الطبيعة المحركة للبحث والمعرفة والابداع لغرض تحقيق الذات . لكن بقيت رمزية الموت الغامضة التي اثارت خوف الانسان وقلقه على مصيره ، وجعلته غير مستقر ومطمئن ازاء ما بعد الموت ، لذلك تعد ملحمة كلكامش تعبيرا رمزيا عن إشكالية الموت، ورمزا يقابل (الخلود) لغرض ترسيخ نفسية الإنسان وطمأنتها على الاستمرار في البناء والإبداع الحضاري ، وبناء على ذلك اصبحت هنالك بدائل لرمزية خوفه من (الموت) وقلقه . وفي العود إلى الاصول والبدايات ، نجد ان العبادات والاعتقادات مرتبطة

---

[22] طه باقر ، مقدمة في ادب العراق القديم (بغداد : دار الحرية ، 1976م) ص72.

بالسماء ، وهي تدلل على رقي عقلية الانسان اكثر من العبادات او الاعتقادات المرتبطة بالارض . لذا بقيت السماء مصدر كل شيء عند الإنسان ، ولم ينفك عن البحث في اعماق السماء التي مثلت بدورها رمزا للعطاء والمحرك للوجود .

ومن الرمز ولدت الحضارة فهو متقدم عليها ، ويبقى المتقدم على الاشياء دائما لأنه جوهرها وسبب حركتها ومحرض لإبداع الإنسان ، وهو للإنسان الطيب المطمأن على استمراره في الحياة . وحاول الفيلسوف العراقي ان يبين من خلاله عملية إرضاء الآلهة وكسب ودها وابعاد الشرور والنكبات واطالة العمر . ولاطالة عَمر الفردوتمنيه لها ، اهمية كبيرة في مجتمع بلاد الرافدين بفعل قوة الآلهة واثرها في المصير الانساني للإنسان ، واطيافها الحصار الذي تفرضه عليه . وقد جاء في نص يعود الى الملك الآشوري سرجون الثاني (721-705ق.م) علاقة حياة التقوى بطول العمر الذي يتمناه الانسان جاء فيه:

أركعُ دائما للعبادة
حتى احفظ راحتي ..
وأطيلُ عمري
وتستقر حكمتي ..

ويتحدث الملك الاشوري تجلا تبليزر الاول (1115- 1077ق.م) في احد نصوصه عن جده الملك آشور دان الاول(1179- 1134ق.م) قائلا :

ان منجزات يده
وقرابين عطاياه

الى الآلهة العظيمة مستمرة بلا انقطاع
فطال عمره حتى ادرك ابيضاض شعره [23]

ومما سبق نستنتج ان سكان وادي الرافدين جميعا يملكون تصورا عن الآلهة ، ويميلون إلى التعبد، لأنهم يبحثون عن الاستقرار النفسي والعمر الطويل انطلاقا من المبدأ القائل (ما من عمل يقوم به الإنسان الا والفعل الإلهي يدخل فيه ؛ لان قدرة الإنسان اضعف من ان تؤثر في اي فعل) .

من هنا تأتي أهمية الآلهة الشخصية او الآلهة (الحامية للشخص) ؛ اذ تصوَّر سكان وادي الرافدين ان من الضروري ان يكون لكل فرد اله خاص به هو الاله (الحامي) او مايسمى بـــ (الاله الشفيع) يكون المسؤول عن أعمال الفرد المنتسب اليه ويتركه اذا ما ارتكب ذلك الفرد بعض الذنوب . وبذلك يكون الفرد فريسة للشياطين والارواح الشريرة التي سوف تحل فيه [24] ، يتضح ذلك مما جاء في بعض النصوص ومنها النص الآتي :

ليس بمقدور الانسان
بلا اله شخصي
أن يكسب خبزه
وليس بمقدور الفتى

---

[23] Hadel, op. cit.p.140 ؛ نائل حنون ، معتقدات ما بعد الموت في حضارة وادي الرافدين ، (بغداد : 1978م) ص 156-157.

[24] طه باقر ، الديانة البابلية ، مجلة (سومر) م 2 (بغداد: دائرة الاثار والتراث ، 1964م) ، ص5-16.

ان يحرك ذراعه
ببطولة في المعركة
بلا اله شخصي .

لهذا فعلى الإنسان في مجتمع وادي الرافدين حسب تصورهم ان يعمل وفقا لما جاء في النص الآتي :-

أن يسبِّح بعظمة الآلهة
الانسان .. وعلى الشاب
ان يطيع بكل جوارحه
أوامر الآلهة .

والملاحظ ان طاعة الآلهة وطلب الحماية منها ، كان منطلقا من مبدأ أَن الآلهة ما خلقت الانسان الا ليكون في خدمتها ، كما جاء ذلك في (قصة الخليقة) . من هنا كان للإِله (الشخصي) اهمية في حياة الانسان لانه الصلة بين الفرد والآلهة الاخرى (الكبرى) ، طالما كان الانسان باستطاعته ان يخاطبه ويلتمسَه ويستثير عطفه[25].

وتوضح قصة (الصالح المتألم) ما حصل لهذا الرجل عندما تخلى عنه إلهه الشخصي . وقد عرفت هذه القصة بـــ (المسماري) أَو : (لو ــ دلول ــ بيل ــ نميقي Lu-d.lul-bel-nemeqe) نسبة الى مطلعها القائل : (اريد ان اتغنى برب الحكمة) او(سأُمجِّدُ ربّ الحكمة) ونظرا للتشابه بينها وبين (سفر ايوب في التوراة) فقد أَعطتها الدراسات اسم

---

[25] ثوركلد جاكوبسن ، ارض الرافدين ، من كتاب (ماقبل الفلسفة) ص 145-259 ترجمة : جبرا ابراهيم جبرا (بغداد : منشورات مكتبة الحياة ، 1960م) ص221-242.

(ايوب السومري) [26] ، وهي تعود الى العصر الكاشي (1570-1157 ق . م) ويبلغ مجموع ابيات القصيدة نحو (500) بيت شعري ، ودونت على اربعة الواح . وتوضح قصة (الصالح المتألم) أيضا ما حل بالفرد عندما تخلى الهه عنه ، فقد جاء في ذلك ما نصه : ــ

مرض (الألو) كالثوب يلبس جسمي
ويصيدني النوم في شباكه
عيناي تحدقان ولا تبصران
اذناي مفتوحتان ولا تسمعان
والوهن قد أَوقعني في قبضته ...
ويندب قائلا : السوط فيَّ نافذ
وطيلة النهار ثمة مضطهِد يطاردني
وفي الليل لا يلمُّني ولو مرة واحدة
لقد هجرتني آلهتي :
ولم ينجدني إله او يمسك بيدي
ولم تَعنِيِّ آلهتي ولم تشفق عليّ
وصار الجميع يعدونني ميتا، ويتصرفون وكأني حقا قد قضيت
كان القبر لا يزال مفتوحا
عندما اخذوا ينبشون خزائني
ولم اكن قد متُّ بعد

---

[26] فاضل عبد الواحد ، صبر ايوب بين النصوص المسمارية والتوراة ، مجلة (الاداب) م23 (بغداد : جامعة بغداد ، 1975م) ص517-524 . طه باقر ، مقدمة في ادب العراق القديم ، ص147- 150.

عندما توقفوا عن الرثاء
وقد شمِتَ أعدائي بي :
وسمع بذلك ضامر السوء لي
فشعَّ وجهُه .. وَشِمتُتُهُ
وضامر السوء اسمعوه
النبأ السعيد بمرضي
فانتعش كبده[27].

والقصة تظهر لنا قوة الارادة الالهية ومدى ضعف الانسان امامها. ولكن أخيرا ومن دون سابق انذار يعكس لنا (اللوح الرابع) من هذه القصة (الصالح المتألم) كيف ان المعذب المثقل بالآلام والاحزان يلتفت اليه الاله ويحتضنه وينتشله من الواقع الذي هو فيه. كل ذلك بفعل الارادة الالهية كما يشير النص في الاسطورة .

ان ما جاء في قصة (الصالح المتألم) يعكس لنا التصور الذي صبغ الطبقات الاجتماعية بشكل عام بالمشاعر المفعمة بالولاء والطاعة للآلهة بسبب الخوف منها ، ذلك الخوف الذي تحول الى حبٍّ للآلهة ؛ فحب (الصالح المتألم) للإله والخوف منه ، جعله يقضي حياته بالتأمل الذاتي والحسرات حتى التفت إليه الاله فانتشله مما هو فيه . بهذه الصورة جسد لنا الفيلسوف شريحة من شرائح الواقع الاجتماعي التي كانت تنبض بالإيمان وبالإرادة الإلهية ، حيث كانت الإرادة الإلهية هي الفعل الواعي ،

---

[27] فاضل عبد الواحد ، من الواح سومر إلى التوراة (بغداد: دار الشؤون الثقافية ، 1979م) ص373-389.

وان الصدق والإحسان والطاعة فرائض عرفها المجتمع في وادي الرافدين.

من هنا نلاحظ ان الطاعة كانت في مقدمة الفرائض التي أوجبها المجتمع ، كما ان الدولة كانت اساسا قد بنيت على الطاعة الالهية وخضوع السلطة لها ، لذا فالحياة الفاضلة في مجتمع وادي الرافدين كانت (حياة الطاعة) سواء كانت على مستوى الفرد في اسرته او على مستوى المجتمع لسلطته وآلهته .

والملاحظ أَن الفرد في مجتمع سكان وادي الرافدين كان لا يكتفي بإِطاعة الالهة ، فهناك الطاعة للأسرة ايضا ؛ فعلى الابن اطاعة الوالدين ، وعلى الاخ الصغير اطاعة اخيه الكبير .

واذا كان الفرد لا يتخطى دوائر السلطة الالهية ، كذلك عليه الا يتخطى دوائر السلطة البشرية من عائلة او مجتمع [28]، ومن هنا جاءت الحكمة (اجعل كلام الوالدين بمثابة أمر الهي) . وقد كان الفرد في مجتمع وادي الرافدين حبيس سلطتين : إلهية وبشرية ، وكان عليه ان يتمسك ازاء السلطتين بالطاعة والولاء فضلا عن السلطة الثالثة الارضية المقدسة التي نزلت من السماء الى الارض وهي السلطة الحاكمة في اسطورة أليسَ (إِيتانا) (Etana)[29] التي منها :

في ذلك الوقت

---

[28] جاكبسون ، ارض الرافدين ، ص253-254.

[29] للتفصيل عن ايتانا ينظر : جيسكا كلارج ، الحكايات الفلكلورية والخرافات والاساطير ، ترجمة : حازم مالك محسن (بغداد: بيت الحكمة ، 2008م) ص141-142.

لم يكن لبس تاجا بعد
وكان الصولجان ورباط الرأس والتاج والعصا
مودعة في السماء أمام الاله آنو ....

واذ هبطت الملكية من السماء ؛ فاننا نجد الملوك ممثلين للآلهة على الارض وحاملين هبتها السماوية المقدسة ، لكنهم مع ذلك ظلوا من جملة البشر ، وظلوا يدَّعون قرابتهم من مركزهم [30] وهنا يطرح هذا التساؤل: هل الطاعة قائمة على اساس اليقين بجوهر ما فوق الطبيعة الذي اقسم به الاله ، او كانت تلك الطاعة قائمة على اساس عاطفة وورع وخشية من الآلهة ؟ وكيف تفسر طاعة الفرد لمجتمعه ؟

من الملاحظ ان الطاعة والصدق والاخاء .... الخ صفات فرضها المجتمع على الفرد عبر العصور، وسرعان ما اصبحت عرفا وتقليدا يلتزم به الفرد بوصفه القانون السائد، لهذا كان التزام الفرد بهذه الصفات يعد أمرا طبيعيا .

وهنا يأتي الاهتمام بالشعائر والطقوس وضرورة القيام بها سواء كان ذلك على مستوى الفرد او المجتمع او الدولة (السلطة السياسية) . وعلى المستوى الرسمي تكون السلطة السياسية في البلاد نظرا لانها تستمد سلطتها من الآلهة او تمثلها ، ملزمة بالقيام بالواجبات الدينية وفي مقدمتها : اقامة الصلوات واحتضان الشعائر والطقوس واقامة المعابد وصيانتها ، فضلا عن مهماتها الدنيوية التي في مقدمتها ادارة شؤون البلاد والسهر على أمن المواطنين ، وقيادة الجيش ، وحماية الحكام والقضاة

---

[30] فاضل عبد الواحد وعامر سليمان ، عادات وتقاليد الشعوب القديمة (الموصل : جامعة الموصل ، 1979م) ص50 .

والقادة ، واصدار القوانين والتعليمات ، والإشراف على تنفيذ المشاريع العامة ، وتحديد الضرائب واسلوب جبايتها ، وغير هذا الكثير [31].

ومما سبق ذكره نجد ان الانسان كان عبدا للقوى الكونية الكبرى ، فألزم نفسه بأن يخدمها ويطيعها ولا سبيل للتأثير فيها سوى بالصلاة والاضحية. لقد اعتقد الفيلسوف العراقي القديم ان الشرور والنكبات التي يصاب بها الفرد في مجتمع وادي الرافدين، كما جاء في قصـــــة (الصالح المتألم) (مشرى – شاكان) أو (ايوب السومري) التي اشرنا إليها لم تكن احداثا طارئة ، بل هي نتيجة الفعل الإلهي وإرادته .

وقد تصور سكان وادي الرافدين ان الآلهة مسؤولة عن كل ذلك. وبهذا يكون الانسان قد اوجد مقياسا لقيمه يقيس به افعال الآلهة تجرؤا على الآلهة : وتساؤلا منه : لماذا انزلت البلية برجل ما ؟ واين العدالة الالهية ؟

ولكن ما لبث الإنسان ان فسر ذلك بأن تلك القوى التي تتحكم بالبقاء قد تعامل الانسان الذي قضى حياته بالخير والفضيلة وكأنه من أسوء الآثمين ، فيجازى على تقواه جزاء الاشرار ويعامل مثلهم كما في هذا النص :

لم يخفض محياه ولم ير احدا يخر.. راكعا
وقد حجب الصلاة والدعاء عن شفتيه [32]

ويتساءل المفكر العراقي القديم : اذا كانت هذه الارادة الالهية فلماذا هذا التعامل ؟ لقد ادرك الانسان القديم ، حسب تصور الفيلسوف العراقي القديم ، انه مع كل ذلك لا يستطيع ان يصدر حكما على الامور الالهية ،

---

[31] المصدر نفسه ، ص51 .

[32] جاكبسون ، ارض الرافدين ، ص354 .

ولا يحق له مجابهتها بقيمه الانسانية . ويوضح ذلك ما جاء في النص الاتي :

ما يبدو للمرء جدير بالثناء
حقير امام الآلهة
وما لا يروق لقلب المرء يروق لربه

أنّى للانسان ان يدرك فكر الآلهة في اعماق السماء .

وعالج لنا الفيلسوف العراقي القديم اختلاف الشرائح الاجتماعية ، فمنها ما ينبض قلبها بالايمان وبالارادة الالهية ، ومنها التي تركت امور القيادة وراحت تتصرف على وفق ما يملي عليها قلبها :

كما في النص الآتي :

والناس بين الصبح والعشية
يتبدلون
اذا جاعوا فهم كالجثث !
واذا شبعوا نافسوا الآلهة
وان اعتدلت أمورهم ثرثروا بالصعود الى السماء
واذا اضطربت أمورهم تحدثوا بالنزول الى الجحيم [33]

ومع كل ذلك فقد عدّ الفيلسوف العراقي القديم الارادة الالهية العقل والواقع ؛ لانها هي التي خلقت في الإنسان لفظة الصـــدق والاحسان ، تلك اللفظة التي كانت فريضة المجتمع ، ولاسيما في المسائل الخطيرة التي تتعلق بمصير الاخرين كأداء الشهادة امام المحاكم .

ونظرا لعدم وجود قانون مدون يحفظ حيوية الشعور بالصدق في الكلام والاخلاص في العمل ، فإن القانون الشائع (أي الاعراف والتقاليد) هو

---

[33] المصدر نفسه ، ص255 .

الذي يدفع الانسان الى الالتزام بذلك . من هذا المنطلق انعدم الشك واصبح الصدق حجة الفرد المقنعة ، طالما كان هناك اله اقسم بالعدل والانصاف وازالة الاعوجاج من الانسان . وهذا هو الذي دفع الانسان الى الاقتداء بالأخلاق الالهية بوصفها منبع الحق والعدل ؛ فالملك (انتمينا) في الحقبة السومرية الاولى (2900– 2371ق.م) تكلم كثيرا على فعل الحق والعدل ، وكان يستعمل لفظة الصدق والانصاف (Inim-si-sa) للاله (انليل) وهو من الالهة العراقية القديمة ، ويعني اسمه (سيد الريح العاصفة) ، وكان يقرر المصير ويراقب سير القوانين ويعاقب المذنبين الذين يمسكهم مثل الطيور . وكانت مدينة (نفر) مركز عبادته ، وعبادة الاله (ننكرسو) والإلهة (نانشة) [34] . اما الملك (أأناتم) فكان يفتخر بكونه اصبح الرجل ذا الكلمة الصادقة (Lu–inim–Si–Sa) المستقيمة والنزيهة[35].

والملاحظ ان فكرة العدل والاستقامة ، حسب تصور الفيلسوف العراقي القديم ، اخذت تتبلور منذ الالف الثاني قبل الميلاد ، واصبحت قاعدة السلوك بين البشر ، ولاسيما في وقت ظهور شريعة (حمورابي) اذ اصبح الناس يشعرون بان العدالة حق مشروع للامن الشخصي .

ولعل العدل والاحسان اللذين تغنى بهما الكثير من حكام وادي الرافدين ، قد دفعا إلى القيام بالاصلاحات الاجتماعية ؛ فحاكم لكش (اورنميكينا) (Uru-nim-gine) (الذي يقرأ سابقا اوروكاجينا) يفتخر

---

[34] جان بوتيرو ، الديانة عند البابليين ، ص37.

[35] Jean , Charles , Le religion Sumerienne (paris:1931) p.229

بإصلاحاته وتشريعاته وبكونها مستوحاة من احكام العدل الالهية [36] ، فهي اقدم اصلاحات اجتماعية واقتصادية عرفها التاريخ القديم في العالم [37] .

ويعتقد (اورنميكينا) ان الاله ننكرسو (Nan-Karso) هو الذي اختاره من بين (36) الف مواطن ليكون ملكا على مدينة (لكش) ، على الرغم من ان سلطته اتجهت نحو الانفصال التام عن سلطة المعبد. لكن جهود (اورنميكينا) في الحرية والديمقراطية والاصلاح ذهبت ادراج الريح عندما ظهر حاكم مركزي توسعي له طموحات كبيرة وشخصية هو لوكال زاكيزي (Lugal-zaggezi) ، الذي استطاع ان يقضي على منابع الفكر الحر في لكش بعد عام (2400 ق.م) وبذلك انتهت حياة اول مشروع للفكر الحر في تاريخ العالم .

---

(36) Delaport , L , La Mesopotams , des civilization babglonsenre et Assyrien (paris: 1923) p19-29

ينظر للتفصيل (فوزي رشيد ، الشرائع العراقية (بغداد : وزارة الاعلام ، 1979م) .

(37) جان بوتيرو ، بلاد الرافدين ، ترجمة : البير ابونا (بغداد : دار الشؤون الثقافية ، 1990م) ص12.